

أمام سحره الذى يستولى على نفوسهم عاجزين عن المقارنة؛ أو عن تقبل أى نصٍّ يحاول أن يُضاهى النصَّ المقدس ..

ولهذا اكتفى شوقى بأخذ الفكرة الأساسية من القرآن .. سفينة تحمل من كلِّ زوجين اثنين .. عالم صغير .. يعيد بناء العالم الكبير .. حفنة بذور تعيد انبعاث الغابة وازدهارها .. ولكن هذا العالم الصغير - كان فى نظر شوقى - يموج بكل ما يموج به العالم الكبير من عواطف، وعواصف ومناورات .. وحيل يتجلى فيها الذكاء والمكر والخديعة، ويلبس اللصوص والأوغاد، عباءات الزهاد، ويتخفى الأشرار تحت أروية الأخبار .. وهكذا الحياة ..

عارض شوقى كثيرا من الشعراء .. عارض البحتري والمنتقى، وابن زيدون والبوصيرى والحصرى، وغيرهم ووقف وقفة العاجز الحسير أمام النصَّ المقدس، يقينا منه أنه سيكون لو فعل:

كماطح صخرة يوما ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنة الوعل

ذلك أن الفن يعتمد على الإقناع بطرق الإيحاء الفنِّ، فما بالك وأنت قبل أن تستخدم حيلك الفنية، وتبدى مهاراتك اللغوية وغير اللغوية، قد فقدت الإقناع النفسى لمن يتلقون عنك هذه الحيل وهذه المهارات بأنك تبدع شيئا ذا بال، لأنَّ الوجدان الجماعى، والوجدان الفردى، قد أترعا منذ عصور وعصور ببراعة النص السابق، واستحالة الاقتراب البشرى، من روعة الأداء الإلهى ..

نظرية إعجاز القرآن كما فسرها الأشاعرة، وأهل السنة .. القرآن معجز ببلاغته، ونمطه البيانى ..

ماذا لو كانت قد انتصرت فى الحياة العربية .. النظرية الأخرى .. المعتزلة ... أن القرآن نمط من البيان، مثل أنماط البيان العربى الأخرى فى مراسم فصاحته وخصائص بلاغته ..

«فقد كان من المعتزلة من يظن أن الناس يقصدون على الإتيان بمثله، وبما هو أحسن منه فى النظم لولا الصرفة».

وقد جعل ابن سنان الخفاجى القرآن طبقات بعضها أفصح من بعض، وقال: